القرآن والأحاديث النبوية
والعلم الحديث

القرآن والأحاديث النبوية والعلم الحديث

تمت مراجعة هذا الفصل
بالتعاون مع الدكتور معروف الدواليبى

ليس القرآن هو المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة فى الإسلام . بل إن السنة النبوية من أفعال النبى ﷺ وأقواله هى المصدر الثانى الذى عنى العلماء بطلبه تكملة للمصدر الأول ، حتى فى أثناء حياة النبى فضلاً عنه بعد وفاته . وكانت معلومات هذا المصدر الثانى تعتمد فقط على النقل الشفهى . لذلك فإن الذين بادروا إلى جمع هذه الأقوال والأفعال فى نصوص قد قاموا بتحقيقات تتسم دائماً بالصعوبة كما هو الشأن فى حكاية جميع الأحداث بعد انقضائها . ولهذا كان همهم الأول فى عملهم العسير فى مدوناتهم منصباً أولاً على دقة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حادثة فى حياة محمد ﷺ ، وبكل قول من أقواله . وللتدليل على ذلك الاهتمام بالدقة والضبط لمجموعات الأحاديث المعتمدة ، فإنهم قد نصوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وذلك بالصعود فى الإسناد إلى الأول من أسرة النبى ﷺ ومن صحابته ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة من محمد ﷺ نفسه ، **وذلك بغية الكشف عن حال الراوى فى جميع سلسلة الرواية ، والابتعاد عن الرواة غير المشهود لهم بحسن السيرة وصدق الرواية ونحو ذلك من دلائل ضعف الراوى الموجبة لعدم الاعتماد على الحديث الذى روى عن طريقه . وهذا ما قد انفرد به علماء الإسلام فى كل ما روى عن نبيهم ﷺ .**

وهكذا ظهرت للوجود مجموعات أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وأصبحت تعرف الآن فى العلوم الإسلامية بـ « علم الحديث » . وإذا كانت كلمة « حديث » قد تشير فقط إلى القول ، فإنها تجمع تحتها أيضاً روايات أفعال النبى ﷺ .

وقد نشرت أول مجموعة للأحاديث فى العشرات من السنين التى تلت مباشرة وفاة محمد ﷺ . وقد كانت كمية الأحاديث التى جمعت فى القرن الأول بعد وفاته محدودة بالنسبة

إلى كثرة الأمور المنقولة عنه ، وإن أضخم مجموعات الحديث لم تظهر إلا بعد مضى أكثر من قرنين على وفاته ، وهى التى جمعت أوسع المعلومات وأوثقها ، ويعتبر صحيح البخارى بصورة عامة أكثر الكتب صحة بعد القرآن . ولقد قام « هوداس Houdas » و « مارسى Marcais » فيما بين ١٩٠٣ و ١٩١٤ بترجمته إلى الفرنسية تحت عنوان « الأحاديث الإسلامية » . وقد نشرت فى الأعوام الأخيرة طبعة عربية مع ترجمة إنجليزية للدكتور محمد حسن خان من الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة . وبناء على ذلك أصبح فى استطاعة من لا يعرف العربية الاطلاع على الأحاديث بلغة أخرى . غير أن الحيطة لازمة إزاء قيمة بعض الترجمات التى أنجزها الغربيون ، بما فى ذلك الترجمة الفرنسية ، إذ يستطيع القارئ أن يكتشف فيها أحياناً ما هو غير صحيح ومناقض للحقائق ، مما يعتبر تأويلاً لا ترجمة حقيقية ، بل هناك أحياناً تحريفات كبيرة للمعنى الحقيقى للحديث لدرجة أنها تجعله يقول مالا يعنى .

ونرى فى هذا المقام أنه من الممكن المقارنة فيما بين مجموعات الأحاديث وبين الأناجيل من حيث أصول النصوص فيها : إذ هناك سمة مشتركة فيما بينها جميعها من حيث إن هذه المجموعات والأناجيل قد كتبت كلها بأقلام كتاب لم يكونوا من شهود العيان لما قد نقلوه من الوقائع ، كما أنها لم تظهر للوجود إلا بعد انقضاء مدة على الأحداث التى تتكلم عنها . وكذلك فإن مجموعات الحديث هى مثل الأناجيل من حيث إنها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة ، ولهذا فإن أصحاب الأخصاء فى علم الحديث لم يقبلوا من هذه الأحاديث بصورة شبه إجماعية إلا عدداً قليلاً منها ، وأصبح من الممكن أن يوجد فى نفس المجموعة الواحدة أحاديث مظنون فيها ، أو مرفوضة قطعاً ، إلى جانب الأحاديث التى اعتبرت صحيحة .

غير أنه على عكس الأناجيل القانونية التى لم يتناولها الاعتراض عليها والنقد لها ، برغم أنها كتبت بأقلام كتاب لم يكونوا أيضاً من شهود العيان لما قد نقلوه ، فإن مجموعات الأحاديث ، حتى تلك التى تعتبر بوجه خاص أنها صحيحة ، قد خضعت كلها لفحوص نقدية عميقة قام بها أساتذة الفكر الإسلامى **لتحديد درجتى القبول والعمل بها** . ولكن الكتاب الأساسى ، أى القرآن ، قد ظل المرجع الذى لا يمكن أن يكون محلاً للجدل فى

صحة نصوصه ، وذلك لأنه قد نقل عن النبى ﷺ بصورة إجماعية متواترة ، وسجل عنه فى أيام حياته بأقلام كتاب كانوا كلهم من شهود العيان لما قد سجلوا .

ولقد قمت بالمقارنة بين الملاحظات التى خرجت بها من دراسة الأحاديث وبين الملاحظات التى عرضتها من قبل فيما يختص بالقرآن والعلم الحديث . وكانت نتيجة هذه المقارنة هامة جدًا : لأن الفرق قد ظهر واضحاً ومدهشاً بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها فى حالة مقارنتها بمعطيات العلم الحديث **كلما كانت تلك المعلومات راجعة إلى العلوم الكونية** ، وبين قابلية النقد الواضحة لبعض معلومات الحديث المتعلقة بموضوعات تدخل فى صميم الميدان العلمى ، مع العلم بأن هذه الأحاديث هى وحدها التى نعالجها هنا .

وأن هذه المقارنة قد حملتنى على إبداء الملاحظة التالية ، وهى : كيف أمكن لمحمد عليه السلام أن يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية فى القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمى فى القرون الحديثة ، لو لم يكن القرآن وحياً منزلا لا شك فيه ، ولاارتياب فى نصوصه ؟ . . . وهذا على خلاف الأحاديث التى أشارت إلى بعض المواضع العلمية وكانت قابلة للنقد والشك فيها . . . وإننى حينما أشير إلى بعض هذه الأحاديث لا أريد منها إلا الأحاديث التى اعتبرت صحيحة بصورة عامة مثل أحاديث صحيح البخارى . غير أننى لا يفوتنى هنا أن العلماء المختصين فى علم الحديث قد صنفوا الأحاديث القابلة للنقد فى جملة الأحاديث الظنية الثبوت ، وميزوا بين هذه وبين الأحاديث المتواترة المصنفة فى جملة الأحاديث القطعية ، آخذين بعين الاعتبار فيما يتعلق بالأحاديث الظنية الثبوت أنها كتبت بأقلام أناس اعتمدوا فيها على النقل الشفهى للأحاديث النبوية ، وأنها بالتالى قد تقل دقتها نتيجة لأخطاء الرواة الذين قد نقلوا هذه الأحاديث بطريقة أخبار الآحاد ، والذين لم يتوافر لديهم كمال القدرة على ضبط ما سمعوه ، ولا الانتباه لظروف الكلام الذى نقلوه .

وهكذا يتقرر لدينا من جديد أن حقائق القرآن العلمية كما شرحناها فى محلها سابقاً . تدل جميعها على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشر فيها ، وأنها وحى لا شك فيه ، وذلك خلافاً لنصوص الأحاديث الظنية من أخبار الآحاد التى لا يمكن أن ترتفع فى الثبوت إلى درجة الوحى المنزل المتواتر المكتوب ، وذلك لما قد يدخل عليها من أخطاء الرواة

كما سبق . وفضلاً عن ذلك كله فقد يكون الحديث صحيحاً لا شك فيه ، ولكنه ما دام فى أمر من أمور الدنيا مما لا علاقة للدين به . فلا فرق عندئذ فى ذلك بين النبى ﷺ : وبين غيره من البشر لما ورد فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ : « إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وكذلك نقل السرخسى فى أصوله قول النبى ﷺ : « إذا أتيتكم بشىء من أمر دينكم فاعملوا به ، وإذا أتيتكم بشىء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم » . ويكون النبى ﷺ قد دعم بنفسه ملاحظتنا بشكل عام . وأقر الفوارق فيما بين مواضيع القرآن العلمية التى لا شك فيها وقد أيدها العلم الحديث ، وفيما بين بعض مواضيع الحديث التى لا وحى فيها عندما يكون الحديث متعلقاً بشأن من شؤون الدنيا مما قد لا يتفق أحياناً مع حقائق العلم الحديث ، ولا يضر هذا بمكانة الرسول النبوية أو البشرية ، ولكنه مفيد على كل حال لأنه قد يعطينا فى هذه المواضيع صورة عن مفاهيم ذلك العصر وآرائهم فيما يتعلق ببعض المواضيع ذات الصفة العلمية .

ومن أبرز هذه الأحاديث الظنية الدنيوية غير الدينية عدد من الأحاديث المتعلقة بالطب ، مع العلم بأن القرآن لا يعطينا أية إرشادات فنية عن مهنة التطبيب بصورة خاصة ، غير ما قد أشار إليه مرة واحدة فقط فى الآية ٦٩ من سورة النحل (سورة رقم ١٦) التى تقول بإمكانية وجود عامل علاجى فى العسل ، ولكن بدون أى إيضاح علاجى فى ذلك . أما الأحاديث فإنها تحتفظ بمكان واسع لمثل هذه المواضيع . وهكذا فهناك جزء بتمامه من صحيح البخارى (الباب ٧٦) قد أفرد للطب . ويحتل هذا الباب فى ترجمة « هوداس » و « مارسى » الصفحات من ٦٢ إلى ٩١ من الجزء الرابع ، أما فى الترجمة الإنجليزية للدكتور محمد حسن خان فيحتل الصفحات من ٣٩٥ إلى ٤٥٢ من الجزء السابع . ويضاف إلى ذلك أحاديث أخرى ذات طابع علاجى أيضاً ، وقد أدمجت فى أجزاء أخرى من صحيح البخارى . وليس هناك أدنى شك فى أن هذه الصفحات تحتوى على الكثير من الأحاديث الظنية ، فضلاً عن أنها كلها تتعلق بأمور دنيوية غير دينية ، وقد قال النبى ﷺ فى مثل هذا المقام كما سبق : « فأنتم أعلم بأمر دنياكم » . غير أن المجموع العام من هذه الأحاديث المتعلقة بموضوعات طبية هو فى نظرنا هام جدًّا لأنه يعطينا فكرة

العصر فى مثل هذه المواضيع الطبية المختلفة .

وهكذا نكشف فى هذه الأحاديث أفكاراً عن الأذى ، والعين ، والسحر ، وإمكانية التخلص من آثار السحر ، مع العلم بأن هناك منعاً عن التكسب باستخدام القرآن لهذا الغرض ، كما أن هناك حديثاً يشير إلى أن بعض التمر يقى من نتائج السحر ، وأنه يمكن أيضاً استخدامه ضد اللدغات السامة .

هذا ولا ينبغى أيضاً أن ندهش ، ونحن نتكلم عن عصر كانت الإمكانيات الفنية والصيدلية فيه محدودة ، إذا وجدنا هناك توصيات باللجوء إلى إجراءات بسيطة ، أو إلى علاجات طبيعية مثل الفصد ، والحجامة ، والكى ، والحلاقة ضد القمل ، واستخدام لبن الناقة ، وبعض الحبوب مثـــل الحبة السوداء Nigelle ، وبعض النباتات مثل القسط الهندى ، ورماد الحصير لفوائده فى قطع النزيف ، إذ أنه لا بد فى الظروف الصعبة من استخدام كل الوسائل الممكنة والتى قد تكون مفيدة حقًّا . غير أنه لا يبدو لنا مع ذلك أن التوصية بشرب أبوال الأباعر هى فكرة مستطابة للعلاج فى بعض الحالات .

وكذلك يبدو عسيراً فى عصرنا قبول بعض الإيضاحات المتعلقة بعلم الأمراض ، وذلك مثل الإيضاحات التالية :

(ا) فهناك حول «أصل الحُمَّى» أربعة نصوص تنص على أن «الحمى هى من فيح جهنم» –كتاب الطب ، الفصل ٢٨ ، الصفحة ٤١٦ .

(ب) وهناك القول بـ «وجود علاج لكل مرض» حيث ذكر فى الحديث أنه : «لم ينزل الله مرضاً إلا وأنزل له علاجاً» –كتاب الطب ، الفصل ١ ، الصفحة ٣٩٥ – ، وفى حديث الذبابة توضيح لهذا المفهوم حيث نقل فى الحديث : «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ، ثم ليطرحه ، فإن فى أحد جناحيه داء ، وفى الآخر شفاء» – كتاب الطب ، الفصل ٥٨ ، الصفحة ٤٥٢ ، وكتاب بدء الخلق ، الباب ٥٤ ، الفصلان : ١٥ و ١٦ ، الصفحة ٣٣٥ – .

(جـ) وهناك القول بـ «الإجهاض عند رؤية ثعبان معين» وأنه «يسبب العمى» ، وقد نص على ذلك فى كتاب بدء الخلق ، الفصلين ١٣ ، ١٤ ، الصفحات ٣٣٠ – ٣٣٥ .

(د) وكذلك حول النزيف خارج العادة الشهرية ، فقد جاء فى كتاب الحيض ، وفى الباب السادس من البخارى حديثان عن النزيف خارج العادة الشهرية (الفصلان ٢١ ، ٢٨) . وهذان الحديثان يخصان امرأتين . ويؤكد الحديث فيما يتعلق بإحدى الحالتين أن النزيف ناشئ عن عِرْق ، ولكن الحديث لم يعطنا أى إيضاح عن الأعراض ، وأما فى الحالة الأخرى فالموضوع امرأة تنزف منذ سبع سنوات خارج العادة الشهرية ، وفى هذه الحالة أيضاً يؤكد الحديث بأن النزيف ناشئ كذلك عن عِرْق . وقد يكون من الممكن القول بعدة افتراضات حول السبب الحقيقى لهذه الاضطرابات ، ولكنه من العسير معرفة الحجة التى استند إليها حينذاك لتأكيد مثل هذا التشخيص الذى قد يكون مع ذلك صحيحاً .

(هـ) وهناك أيضاً القول بـ « عدم عدوى بعض الأمراض » ، وقد نقل ذلك فى عدة أمكنة من مجموعة البخارى – كتاب الطب ، الباب ٧٦ ، الفصول : ١٩ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٥٤ – وذلك تارة فى أثناء الكلام عن بعض الحالات الخاصة : مثل الجذام ، والطاعون ، وجرب الجمال ، وتارة بصورة عامة . غير أن هذه الأقوال فى تلك الحالات الخاصة قد رافقتها أقوال أخرى مناقضة ، وهكذا فهناك فى الواقع أحاديث أخرى توصى بعدم الذهاب إلى حيث يوجد الطاعون ، كما توصى بشدة بالفرار من المجذوم .

ونستنتج من كل ذلك أنه من الممكن القول بوجود بعض الأحاديث غير المقبولة علمياً فى مواضيع الطب والمعالجة ، وإن الشك يخيم على صحتها ، فضلاً عن أنها من أمور الدنيا وليست من أمور الدين . وإن الفائدة من الإشارة إليها هو فقط لمقارنتها مع نصوص القرآن العلمية التى أثبتت دراستها كما سبق : أنها لا تحتوى قط على شىء من ذلك غير صحيح ، ولذلك كان لهذه المقارنة أهمية كبرى ، لأنها كما رأينا تشهد للقرآن بأنه وحى لا شك فيه ، وأنه لايد فيه للبشر .

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة من الأحاديث التى قد ذكرناها أعلاه مما لم يعتبر مقبولا علمياً فى مواضيع الطب والمعالجة ، هناك أيضاً بعض الأحاديث الأخرى من أخبار الآحاد

ومما لا علاقة لها بأمور الدين ، غير أنها قد تتخذ تفسيراً لبعض الآيات القرآنية الكونية فى مدار الشمس وفى مراحل تكوين الجنين مما لا يمكن أن تقبل فى عصرنا كتفسير لآيات لا اعتراض على مفهومها ضمن نصها القرآنى .

وهكذا فقد مر معنا كما تعلمون فى الآيات العلمية حول الشمس أنها «تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها» – سورة يس ٣٦ ، الآية ٣٨ – وتبين لنا هناك أنها من عجائب معلومات القرآن الكونية التى لم تكتشف إلا فى العلم الحديث . غير أنه قد ورد حديث قد يعتبر تفسيراً للآية القرآنية ، وهو يرى أنه «عندما تغرب الشمس فإنها تسجد تحت عرش الله ، وتطلب إليه الإذن بأن تعيد طريقها وتسجد من جديد . وفى نهاية الأمر تعود من حيث أتت لتشرق من جديد» . وقد جاء النص الأصلى لهذا الحديث فى «كتاب بدء الخلق» من صحيح البخارى ، الجزء الرابع ، الباب ٥٤ ، الصفحة ٢٨٣ . وعلى الرغم من أن هذا الحديث مبهم وعسير الترجمة . ، فإنه يحتوى على صورة مجازية تتضمن معلومات خاصة «بمدار الشمس حول الأرض» مما لا يتفق فى ظاهره مع العلم الحديث الذى أثبت العكس . وعلى كل فإن هذا الحديث فى ظاهر معناه هو أكثر من ظنى ، وهو من أخبار الآحاد كما هو معروف فى علم الحديث ، وما كان كذلك فهو لا يفيد العلم القطعى .

وكذلك هو الأمر فيما يتعلق بمراحل تكوين الجنين ، فقد وردت فقرة من حديث يحدد بصورة غريبة الأزمنة اللازمة لتطور الجنين فى مراحله الأولية كما جاء ذلك فى نفس «كتاب بدء الخلق» من صحيح البخارى – الباب ٥٤ ، والفصل السادس ، الرقم ٤٣٠ ، والصفحة ٢٩٠ – فهناك مرحلة محددة بأربعين يوماً تجتمع فيها العناصر المكونة للكائن البشرى ، ثم مرحلة أخرى مساوية للأولى حيث يصبح فيها الجنين «علقة» ، ثم مرحلة ثالثة مساوية أيضاً فى المدة لأربعين يوماً يصبح فيها الجنين كاللحم الممضوغ «مضغة» . ثم بعد ذلك يأتى تدخل الملائكة لتحديد ما سيكون عليه مستقبل هذا الكائن ، ثم تنفخ فيه الروح . وإن وصف تطور الجنين فى هذا الحديث الظنى لا يتفق مع المعلومات العلمية الحديثة . أما نص القرآن القطعى حول ذلك فقد سكت عن هذا التحديد الزمنى الذى لا اعتراض عليه .

وفى الحقيقة يجب على القارئ أن يتذكر أن تعاليم النبى ﷺ قد انقسمت عند موته إلى مجموعتين :

– فمن ناحية كان هناك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، وكانوا يتلونه مثل النبى ﷺ دائماً . ويضاف إلى ذلك أنه كانت هناك أيضاً تسجيلات كاملة لنص القرآن ، وقد تمت هذه التسجيلات فى حياة النبى ﷺ وبأمر منه ، ومنذ ما قبل الهجرة (١) .

– ومن ناحية أخرى فإن المقربين من صحابة النبى ﷺ والمؤمنين ممن كانوا من شهود العيان لأفعاله وأقواله ، قد حفظوها فى ذاكرتهم واعتمدوا عليها بالإضافة إلى القرآن للتعريف بالعقيدة والشريعة الجديدتين .

غير أن هذه التعاليم القرآنية والنبوية لم تلبث أن دونت فيما بعد وفاة النبى ﷺ وذلك فى مجموعتين منفصلتين . وكانت أولى المجموعتين هى مجموعة نصوص القرآن التى دونت بصورة رسمية فى عهد الخليفتين أبى بكر وعثمان ، وخاصة فى خلافة هذا الأخير الذى قد عمم على جميع الأمصار الإسلامية النص القطعى للقرآن . وكان ذلك كله فيما بين العام الثانى عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة محمد عليه السلام وبمعرفة جميع شهود العيان لما قد سمعوا وحفظوا أو سجلوا .

وأما فيما يتعلق بالحديث فإن أول مجموعة فيه إنما ظهرت بعد حوالى أربعين عاماً من الهجرة .

ونرى من الواجب فى هذا المقام التأكيد على عدم التشابه فيما بين هاتين المجموعتين : القرآنية والنبوية ، سواء من وجهة النظر الأدبية . أو من وجهة النظر أحياناً للمحتوى والمضمون فيما يتعلق ببعض الأمور ذات الطابع العلمى . وهكذا فإنه يستحيل إقامة أية مقارنة بين أسلوب القرآن وبين أسلوب الحديث . وكذلك فإننا إذا قارنا بين محتويات نصوص القرآن وبين محتويات نصوص الحديث فيما له صلة بالعلوم لا بالعقيدة والتشريع ، وقابلناهما مع معطيات العلم الحديث ، فسوف تذهلنا حقًّا الفروق التى آمل أن أكون قد

(١) تقع الهجرة فى عام ٦٢٢ م . أى قبل عشر سنوات من وفاة محمد ﷺ .

نجحت فى إظهار وجودها :

أولاً : من ناحية معتقدات علمية قرآنية لم تكن أحياناً مقبولة فى ظاهرها ، ولكنها عندما درست اليوم على ضوء المعارف الحديثة الثابتة ظهر أنها تنطوى على معطيات علمية استطاع العلم فى العصر الحديث فقط أن يثبت حقيقتها .

ثانياً : من ناحية أخرى فيما يتعلق ببعض نصوص الأحاديث ذات الصلة بقضايا علمية لا صلة لها بقضايا الدين ، فقد احتوت على آراء اعتبرت اليوم غير مقبولة علمياً ، ولكنها — وهى كلها من أمور الدنيا — يبدو لنا أنها تعبر عن مفاهيم ذلك العصر فى تلك القضايا ، حتى ولو كانت صحيحة فى نسبتها إلى محمد نفسه . وقد أقحمت هذه الآراء الدنيوية فى مجموعة من النصوص المتعلقة بالعقيدة والشريعة الإسلاميتين مما هو متفق على الاعتراف بصحتها وعلى عدم المجادلة فيها .

وأخيراً فإن هذا الذى قد توصلنا إلى الكشف عنه من الفروق فى الأمور العلمية الدنيوية فيما بين القرآن والحديث ، يدعمه محمد ﷺ نفسه حين قال كما سبق : «إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» ، وفى رواية : «وإذا أتيتكم بشىء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم» .

وهكذا نختم هذه المقارنة بين القرآن وبين الحديث فى الأمور العلمية الدنيوية بالتأكيد على أن هذه الفروق تثبت بصورة مذهلة : إن القرآن هو الوحى المكتوب الذى لا شك فيه ، ولذلك كان معصوماً من كل خطأ علمى من هذا النوع . وأما كلام محمد ﷺ فى تلك الأمور الدنيوية التى لا وحى فيها ، حتى وإن صحت نسبة الكلام فيها إليه ، فإنه كلام بشر قد يخطئ وقد يصيب عملاً بقول محمد نفسه كما سبق أعلاه ، ولذلك كان التمييز على هذا الأساس ما بين القرآن وبين أقوال محمد البشرية الدنيوية هو تمييز ضرورىّ ، وفيه قوة للقرآن ، وتأكيد على أنه وحى لا شك فيه ، كما أنه قوة لمحمد ﷺ نفسه وذلك بالتدليل على صدقه فيما نقله عن الله بطريق الوحى مما يتميز تمام التميز عن كلام البشر ، مصداقاً لقول محمد ﷺ : «فإذا أتيتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» .

خاتمة عامة

فى نهاية هذه الدراسة ، يبدو واضحاً أن الرأى السائد ، المتمسك به فى بلادنا عن نصوص الكتب المقدسة التى فى حوزتنا اليوم ، لا يستقيم مع الواقع . ولقد رأينا فى أى ظروف وفى أى عصور وبأى طريقة جمعت ونقلت كتابة العناصر التى شكلت العهد القديم والأناجيل والقرآن . ولما كانت الظروف التى سادت ميلاد كتابات كل من التنزيلات الثلاثة قد اختلفت اختلافاً شاسعاً . فقد نجمت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص وببعض جوانب مضامينها .

إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية . أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً ، وهو يشكل مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدل البشر من عناصرها عبر السنين ، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل ، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جداً فى بعض الأحيان .

لقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر ، عبر سرد أفعال وأقوال المسيح ، بالتعاليم التى أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض . والسيئ هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التى أخبروا بها . إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة وذلك فى شكل أقوال متوارثة شفهية أو مكتوبة اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهى والنصوص النهائية .

على ضوء هذا يجب أن ننظر اليوم إلى الكتابات اليهودية – المسيحية ، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فعلينا أن نتخلى عن المفاهيم التفسيرية الكلاسيكية .

لقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات والمتعارضات التى سقنا عليها أمثلة عديدة . ولما كان لكتاب الأناجيل ، إزاء المسيح ، نفس الميول إلى تفخيم بعض الأمور مثل كتاب الأدب الملحمى فى القرون الوسطى إزاء الملاحم الغنائية البطولية ، فإن

ناتج هذا هو أن الأحداث مقدمة بشكل خاص عند كل راو . ولذلك تبدو صحة الأمور المخبر بها فى عديد من الحالات مشكوكاً فيها بشكل شديد . وفى هذه الظروف فإن بعد المقولات من الكتابات اليهودية المسيحية التى قد يكون لها علاقة ما بالمعارف الحديثة يجب أن تدرس بالتحفظ الذى يفرضه المظهر الجدلى لصحتها .

إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً وظيفياً مع كل ما سبق . ولكن دهشة المسيحيين تعظم حقًّا عندما يدركون كل هذا ، فقد كان الجهد عميقاً ومستمرًّا ذلك الذى قام به كثير من المعلقين الرسميين حتى ذلك الوقت لإخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثة . ذلك الذى أخفاه هؤلاء المعلقون تحت بهلوانيات جدلية حاذقة غارقة فى الرومانسية المديحية . ولقد أعطينا أمثلة تشى بهذه الحالة العقلية خاصة فيما يتعلق بنسبى المسيح فى إنجيلى متى ولوقا المتناقضين والمرفوضين علميا . ولقد جذب إنجيل يوحنا الانتباه بوجه خاص لاختلافاته الهامة جدًّا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى وخاصة فيما يتعلق بالثغرة التى كانت مجهولة بتأسيس تناول القربان المقدس .

إن لتنزيل القرآن تاريخاً يختلف تماماً عن تاريخ العهد القديم والأناجيل . فتنزيله يمتد على مدى عشرين عاماً تقريباً وبمجرد نزول جبريل به على النبى ﷺ كان المؤمنون يحفظونه عن ظهر قلب بل قد سجل كتابة حتى فى حياة محمد ﷺ . إن التجميعات الأخيرة للقرآن التى تمت فى خلافة عثمان ، فيما بين اثنى عشر عاماً وأربعة وعشرين عاماً من بعد وفاة النبى ﷺ قد أفيدت من الرقابة التى مارسها هؤلاء الذين كانوا يعرفون النص حفظاً ، بعد أن تعلموه فى نفس زمن التنزيل وتلوه دائماً فيما بعد . ومعروف أن النص منذ ذلك العصر قد ظل محفوظاً بشكل دقيق . إن القرآن لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة .

إن القرآن ، وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يظهر أيضاً – لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم – طابعه الخاص وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . بل أكثر من ذلك ، وكما أثبتنا ، يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنساناً فى عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها ، وعلى هذا

فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التى كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن .

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة : ولقد رأينا دليلاً على هذا من خلال روايتى الخلق والطوفان . وعلى حين نجد فى نص القرآن ، بالنسبة لتاريخ خروج موسى ، معلومة ثمينة تضاف إلى رواية التوراة وتجعل مجموع الروايتين يتفق تماماً مع معطيات علم الآثار بما يسمح بتحديد عصر موسى ، نجد ، فيما يتعلق بموضوعات أخرى ، فروقاً شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل ادعاء – ودون أدنى دليل – عن نقل محمد ﷺ للتوراة حتى يعد نص القرآن .

وفى نهاية الأمر فإن الدراسة المقارنة من ناحية بين الدعاوى الخاصة بالعلم ، تلك التى يجدها القارئ فى مجموعات الأحاديث التى نسبت إلى محمد ﷺ والتى يشك فى صحتها غالباً – وإن عكست مع ذلك معتقدات العصر – ، وبين المعطيات القرآنية ذات نفس الطابع من ناحية أخرى ، توضح بجلاء اختلافاً يسمح باستبعاد فكرة شيوع الأصل بين القرآن والأحاديث .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد ﷺ . لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى . عقيمة حقاً المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية .